

بين الحرب والجغرافيا

الحروب العالمية وموقع مصر

تعتبر الحرب مظهراً من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض . وهى كغيرها من تلك المظاهر يصح أن تدرس من نواح مختلفة غير الناحية الفنية الخالصة . فيدرسها علماء النفس مثلاً من حيث إنها تتصل بمحالات نفسانية معينة ، تدفع الناس إلى الشر والتطاحن دفعاً ، وتؤثر بذلك فى سلوك الأفراد من ناحية ، و سلوك الجماعات من ناحية أخرى . ويدرسها علماء الحياة (البيولوجيون) من حيث إنها ظاهرة تتصل بحياة الإنسان ككائن يتأثر فى تطوره بالكفاح من أجل بقاء الأصلح ؛ فتتيح فرصة يغلب فيها القوى الضعيف ، ووسيلة يأتى بها الصالح على غير الصالح . ويدرسها كذلك علماء الأخلاق من حيث إنها شر أواخر ، ومن حيث إنها دليل فساد الطبع أو صلاحه ؛ فهى قد ترجع إلى الأثرة الغريزية والفهم الفطرى وما يصحبهما من قسوة جاهلة أو من دهاء ماكر ، وهذا دليل الشر فى الانسان . وقد ترجع إلى روح الإيذاء والأناقة وتنطوى على كثير من حب التضحية وإنكار الذات ، وهذا دليل الخير فى الإنسان . والحرب يدرسها أيضاً علماء الاجتماع والاقتصاد ، من حيث إنها تستلزم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً معيناً يوجه جهود المجتمع فى الكفاح ، ويرتب الحقوق والواجبات بين المحاربين وغير المحاربين من أبناء المجتمع ، وينمذى أداة الحرب ويلهب سعيرها ويشد عصها بما يضمن النصر ، أو يدرأ الكارثة عند الهزيمة . ويدرسها كذلك علماء التاريخ العام ، والتاريخ السياسى بنوع خاص ؛ فهى حلقة فى سلسلة من الحوادث ، ترتبط أسبابها بالمضى ، وتمتد نتائجها إلى المستقبل ؛ وهى لا تقوم لغير سبب ولا تنتهى إلى غير غاية . وكلما اشتدت فى عنفها واتسعت فى نطاقها كان ذلك دليل عمق أسبابها فى الماضى وبعد نتائجها فى المستقبل . وقد ترتب على هذه الظاهرة أن أصبح جانب هام من تاريخ كثير

من الأمم ، بل من تاريخ العالم ، ترديداً للحروب وما يتصل بها من احتكاك مسلح بين الأمم .
 على أن هناك ناحية أخرى من دراسة الحرب قد تكون جديرة بالعناية ؛ تلك التي تتصل بالمرح الذي تجرى عليه حوادثها ، وبالظروف الجغرافية الطبيعية التي تملئ على قادتها ما يرسمون من خطط وما يتخذون من وسائل (١) .
 ومثل هذه الدراسة ضرورية لتفهم مجرى الحرب ، لأسباب كثيرة أبرزها أن الإنسان لا يحارب في الفضاء ، وإنما يحارب في « المكان » ، وأن ظروف هذا المكان كثيراً ما تحدد نجاح المحارب إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها ، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها ولم يستجب لما تقتضيه من عمل إيجابي ، أو ريث سالب . والقائد الماهر في الحرب هو الذي يرسم الخطة التي تلائم الطبيعة ، ويترسم الطريق الذي لا تحفه المهالك . وفوق ذلك فإن الحروب الكبرى في التاريخ يمكن أن ينظر إليها على أنها حروب بين « أوطان » و « أقاليم » ، كما أنها حروب بين « أم » و « شعوب » . فالأمة القوية والشعب القاهر في حرب من الحروب إنما يستمدان القوة والمنعة من الإقليم الذي يعيشان فيه ، ومن القاعدة التي يستندان إليها . ويندر في تاريخ الحروب أن تنهزم قوة تعرف كيف تجعل الطبيعة في جانبها ، وكيف تستعين بظروف الميدان الطبيعية على العدو . بل كثيراً ما غلبت فئة قليلة فئمة كثيرة ؛ لأن ظروف البيئة الطبيعية أو الموقع الجغرافي كانت تقضى بذلك .

والحرب في عرف الجغرافيين ثلاثة أنواع : حرب محلية أو أهلية تبدأ وتنتهي في وطن صغير واحد ، وبين أفراد أمة واحدة . وحرب إقليمية تقوم بين أم قليلة متجاورة ، ولا تتعداها إلى مناطق أو جهات بعيدة . وحرب عامة أو عالمية تتسع لتشمل جانبا كبيراً من العالم ، وتمتد بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . وليس يعيننا من هذه الحروب الآن ، وفيما يتصل بموقع

(١) ينبغي أن نميز هنا بين الخطط الاستراتيجية ، وهي الخطط العامة والتوجيهات الأساسية للحرب ، وبين الخطط التكتيكية التي تتصل بالحركات المحلية في الميدان . وتعد الجغرافيا العسكرية العامة بالناحية الأولى ؛ أما الناحية الثانية فتتصل بما يعرف بعلم الطبوغرافيا المحلية وبدراسة الخرائط التفصيلية وتحديد حركات الجند لإبان المارك ؛ وهي ناحية فنية خالصة ، لا سبيل بنا إليها في مثل هذا المقال .

مصر بنوع خاص ، غير هذا النوع الأخير ، وإن كان الحديث سيجر بالضرورة بعضه بعضاً ، فيتناول طرفاً أو أطرافاً مما يتصل بالحروب الإقليمية في الشرق الأدنى بين حين وحين .

ومصر أمة قديمة ذات تاريخ طويل . وقد أصابها في تاريخها هذا من الحرب شئٌ كثير . ولكننا نستطيع أن نميز بين قسمين كبيرين من تاريخ مصر العسكري ، بل من تاريخها القومي العام ، تفصل بينهما غزوة الإسكندر في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . فأما القسم الأول ، ويشمل العصر الفرعوني وما سبقه من عصر ما قبل الأسرات ، فقد امتاز بالحروب الأهلية ، التي انتهت بتوحيد الوجهين ، ثم تجددت بعد ذلك في فترتين أو فترات قليلة متقطعة ؛ كما امتاز ببعض الحروب الإقليمية التي شاركت مصر فيها بنصيب كبير لا سيما أيام الدولة الحديثة ، وتكوين الإمبراطورية المصرية في الشرق القريب . ويظهر أن مجد مصر العسكري ، بل مجدها العام في هذا القسم من تاريخها قد ارتبط بمواردها المحلية وحسن استغلالها . ففي العهود التي استكملت فيها البلاد وحدتها المحلية ، وأحسنت استغلال مواردها الطبيعية ، استطاعت مصر أن تدفع عن نفسها خطر الغزو وأن توسع سلطانها وتمد نفوذها في ناحية الشرق ؛ وفي العهود التي أهملت فيها مرافق البلاد ، وساد التنابذ بين أقاليمها المحلية ، وظهر نظام الإقطاع ، ضعفت البلاد وطمع فيها الغزاة الذين جاء أغلبهم من الشرق وقليل منهم من صحارى لوبيا المجاورة . فكان مصر في هذا القسم من تاريخها العام كان بيدها مفتاح تاريخها وزمامه . أما في القسم الثاني الذي تلا غزوة الإسكندر وحروبه العالمية ، فقد أفلت زمام ذلك التاريخ من يد مصر ، واتصل بعوامل أخرى « عالمية » لا سبيل بمصر إلى التحكم فيها . ذلك أن حروب الإسكندر ربطت الشرق بالغرب ، فأبرزت قيمة موقع مصر الجغرافي كحلقة اتصال تتحكم في مواصلات البر ومواصلات البحر على حد سواء . ومنذ ذلك الوقت طمع في مصر الطامعون وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض حيناً ، ومن أقصاها حيناً آخر ، وإن كانت هذه البلاد قد استطاعت في فترات معينة أن تجمع لنفسها من القوة ما تغالب به طمع الطامعين ، وما يمكن لها من السيطرة على المواصلات العالمية ، والإفادة من موقعها الجغرافي إلى أبعد الحدود .

وقد كانت حرب الإسكندر بحق أول حرب عالمية ، احتك فيها العالم اليونانى ببقية الشرق الأدنى وفارس وبلاد الهند والصين . وقبل عهد الاسكندر لم تكن الحروب تتعدى أقاليم محدودة . ففتوح تحتمس الثالث مثلا ، رغم عظمتها وما تجلّى فيها من فن ومقدرة على القيادة والتنظيم ، لم تجاوز أرض الفرات الأوسط . وحروب ملوك فارس الأخمينيين لم تجاوز مصر أو أرض اليونان . وحروب ملوك الهند والصين لم تخرج عن بلاد كل منهما إلا إلى ما جاورها مباشرة . فهي كلها تعتبر حروباً « إقليمية » ، وليس بينها ما يمكن أن يعتبر حرباً عالمية بالمعنى الصحيح . أما الإسكندر فكان أول محارب صال يجيوشه بين مغارب العالم المعروف ومشاركه ؛ فبدأ من بلاد اليونان ، وفتح الأطراف القريبة من إمبراطورية الفرس ؛ ثم انطلق نحو مصر فاستقبلته استقبال المنقذ من حكم الفرس ومفاسده . ومن مصر سار غرباً أول الأمر حتى بلغ حدود برقة وواحة سيوة ، حيث وضع الكاهن الأكبر ، فيما يقال ، على رأسه قرني آمون ، ومن هناك عاد إلى أرض النيل ، ثم اندفع بجيوشه صوب فارس من جديد ، فاخترق الجزء الشمالى منها إلى بحر قزوين وتركستان ؛ وهناك شرّق حتى بلغ حدود إمبراطورية الصين بين تركستان الغربية والشرقية ؛ ثم اتجه جنوباً إلى أفغانستان وشمال الهند ، ومنها عاد في رحلة كشفية طارياً بلاد بلوخستان وجنوب فارس إلى أرض العراق حيث قضى نجه بعد حرب استمرت حوالى اثنتى عشرة سنة ، ولكنها تعتبر حرباً خاطفة إذا ما نحن راعينا العصر الذى تمت فيه ، والبلدان التى دوّخها الإسكندر ثم ربط بين أطرافها بنظام من الحكم العسكرى والفلسفة السياسية العامة ، التى لولا موت صاحبها لغيرت وجه التاريخ في كثير من ملامحه وتفصيله .

ويعيننا من حرب الإسكندر أنها تكشفت عن إدراك صحيح لظروف البيئـة الجغرافية ومقتضياتها العسكرية . وقد تمثل ذلك بوضوح في عدة مسائل ، ربما كان أظهرها أنه عند ما أراد أن ينقض على الإمبراطورية الفارسية ، لم يتسرع في ذلك ، وإنما عمد أولاً إلى تأمين جناحه الغربى في مصر ، فأنحرف من أرض الشام إلى فلسطين وطريق القرما ودلتا النيل . وقد ضمن بذلك أشياء كثيرة : منها أنه تسلط بأقل مجهود ممكن على هذه الأرض الغنية ، التى تصلح أن تكون قاعدة تغذى جيشه عند الحاجة ببعض ما قد يحتاج إليه ، رغم اضمحلال إنتاجها

في أواخر أيام الحكم الفارسي ، أو أنه على الأقل قد قطع بتسلطه على مصر الطريق على أي جيش يستطيع الحاكم الفارسي فيها أن يعده لهجوم به من الخلف على جيوش الإسكندر ، بعد أن تتقدم نحو قلب الإمبراطورية الفارسية في الشرق . وفوق ذلك فقد تجلّى بُعدُ نظر الإسكندر كفاتح عسكري وكواضع أسس إمبراطورية لم يتح له القدر أن يتربع على عرشها الموحد ، في مسائل تفصيلية كثيرة : منها أنه فتح مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ولم يحاول أن يغزوها بالبحر من بلاد اليونان مباشرة ، وقد كان غزو مصر عن طريق مدخلها الشمالي الشرقي أيسر فيما يبدو من غزوها عن طريق البحر ، ومنها أنه بعد أن فتح أرض وادي النيل لم يكتف بذلك ، وإنما أدرك أن الصحارى هي دروع مصر الطبيعية ، وأنه لا بد للسلطة الحاكمة في الوادي من أن تمد أيديها إلى تلك الدروع تتمسك بها وتمتكن منها في الشرق والغرب جميعاً ، فقام برحلته المعروفة إلى حدود برقة وسيوة . ومهما قيل عن الباعث لمثل هذه الرحلة ، فإن من يدرس الجغرافيا العسكرية لا يملك أن يتجاهل قيمتها في تأمين حدود مصر من ناحية البدو اللوييين ، وقد كانوا على الدوام مصدر قلق للحياة الآمنة المستقرة بأرض الوادي ودلتاه . كذلك تجلّى حسن إدراك الإسكندر في أنه لم يكن فاتحاً فقط ، وإنما هو أراد أن يضع أسس ملك دائم ، فرأى أن يعترف بالأمر الواقع ، وهو أن مصر بلاد ذات حضارة عريقة ومجد تليد ، فاحترم تقاليد البلاد ، وبلغ به ذلك أن تسمى « ابن أمون » ؛ ولكنه في الوقت نفسه شرع في أن يوجه مصر توجيهاً سياسياً جديداً نحو البحر المتوسط وبلاد اليونان ، فوضع تخطيط الإسكندرية لتكون عاصمة تحل محل منف ، وترمز إلى التوجيه الجديد نحو الحياة البحرية ونحو الشمال . وكان ذلك بداءة تحول خطير في حياة مصر واتصالاتها الخارجية ، مما كان لموقعها الجغرافي فيه أثر بعيد . وبعد موت الإسكندر كانت مصر من نصيب أسرة البطالسة ، الذين بدءوا أولاً بتنظيم استغلال موارد مصر المحلية ؛ فشقوا ترع الري ، ووسعوا الأراضي الزراعية ، وعملوا على تحسين وسائل الزراعة ، واعتنوا بالمحاصيل الغذائية والتجارية ، ونظموا طرق المواصلات والتجارة ، وأعادوا تنظيم أداة الحكم والإدارة . وبذلك كله ازدهرت مصر ، وغدت قاعدة قوية صالحة للتوسع والأخذ بأسباب السيطرة على طرق المواصلات البرية والبحرية . وفعلًا لم يلبث

الأمر بالبطالسة أن اتسعت أطماعهم ؛ فلم يقنعوا بأن تكون لهم مصر ، وإنما هم اتخذوها قاعدة لتنفيذ سياسة ترمى إلى « السيطرة العالمية » أو ما يسميه مؤرخو الألمان باسم Weltmacht Politik وقد ترتب هذا كله على أن حروب الإسكندر عرّفت الغرب بالشرق ، وأن حسن تنظيم البطالسة لموارد مصر ، واستخدامهم لها كقاعدة تتحكم في طرق التجارة العالمية ، قد مكّن لهم من أن يجعلوا منها دولة تستطيع أن تستفيد من موقعها الجغرافي . ولولا أن الأمر قد استحال بالبطالسة المتأخرين إلى استغلال غير منظم ، وإلى كثير من الترف والفساد ، لما انتهى الأمر بمصر أن تطمع فيها الإمبراطورية الرومانية ، عندما انقلبت قوة مصر ضعفاً ومنتعّتها إغراء بالفتح والعدوان .

ولكن الدرس الهام الذي نخرج به من أول حرب عالمية في التاريخ هو أنها أبرزت قيمة مصر أكثر مما أبرزت قيمة أى إقليم آخر من أقاليم الشرق القديم . فقد قسمت إمبراطورية الإسكندر بين قواده ؛ ولكن مملكة بطليموس التي لم تكن قبل الإسكندر تعدو أن تكون ولاية مهمة من ولايات إمبراطورية فارس المتطرفة ، قد انقلبت في فترة وجيزة إلى دولة فتية ، هي أقوى دول الشرق القريب ، تتحكم في مواصلات العالم وفي تجارته ، وتشق طريقها فوق ذلك إلى أن تصبح بدينتها الإسكندرية مركز الفكر والثقافة في العالم . ومن الغريب ، أو لعله ليس غريباً ، أننا نستطيع أن نخرج بهذا الدرس نفسه أو بمثله من كل حرب عالمية تلت ذلك في تاريخ مصر بعد الإسكندر .

وليس يعنيننا أن تفصل القول في كل حرب من هذه الحروب العالمية التي فتحت سيرتها الإسكندر . بل قد يكفينا أن نختار أمثلة تظهر لنا مكانة مصر من كل كفاح عالمي ، لاسيما ذلك الذي يمس صلات الشرق بالغرب ، أو صلات أهل البلاد المعتدلة بأهل البلاد الحارة ؛ ثم مبلغ تأثير مصر بهذه الحروب إبان استعاريها من جهة ، وبعد هدوء العاصفة من جهة أخرى . وسنختار أمثلة نجمل القول فيها إجمالاً ، مكتفين بما تلقينه دراسها من ضوء على قيمة موقع مصر الجغرافي ، وتاريخها لمقال قادم تفصيل الحديث عن آخر حرب عالمية ، وهي التي بدأت عام ١٩١٤ واتته ، أو يرجى أن تكون قد انتهت ، في عام ١٩٤٥

ولعل أول حرب عالمية احتك فيها الشرق بالعرب احتكاكاً صحيحاً بعد العهد الإغريقي الروماني هي حرب الصليبيين . أما فتوح الإسلام الأولى فقد احتك

فيها بعض الشرق ببعضه الآخر احتكاكا عنيفاً ، وحاول الشرق أن ينفذ إلى الغرب الفرنجى من بابه الخلقى فى إسبانيا ؛ ولكن الاشتباك هناك كان اشتباكاً جزئياً وغير حاسم ؛ بل إن الدولة الإسلامية فى الشرق الأدنى نفسه لم تفعل أكثر من أن اقتطعت من إمبراطورية الروم ولاياتها فى غرب آسيا وشمال إفريقيا ؛ فهى لم تتخط البحر إلى بلاد الروم نفسها . ولذلك بقى احتكاك الإسلام بالمغرب وبالفرنجة المسيحيين إقليمياً فى مداه ؛ هادئاً فى مجلته ، حتى جاءت الحروب الصليبية ، فاتخذت العلاقات شكلاً جديداً ؛ إذ طمع الغرب فى أن يتسلط على جانب من قلب الشرق القريب . وقد استمر الكفاح من أواخر القرن الحادى عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر . ولكن الصليبيين أخطأوا منذ البداية فى رسم خططهم وتلمس طريقهم ، وقأسوا نتيجة هذا الخطأ حتى النهاية . ذلك أنهم عندما تقدموا أول الأمر لم يأتوا الشرق العربى الإسلامى من بابه الصحيح ؛ وإنما غزوه عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى ، فأصابهم الهلاك فى مطلع هجومهم ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى الأرض المقدسة ، ولكنهم أغفلوا شأن مصر التى كانت مفتاح الموقف كله ، ونقطة الارتكاز الأساسية لمن يريد التوغل فى الشرق القريب والسيطرة عليه . ومع أنهم حاولوا فتحها فى عامى ١١٦٧ ، ١١٦٨ م . فإن محاولتهم جاءت متأخرة مترددة ، وانتهت بالإخفاق أو الارتداد على كل حال . واستتب الأمر فى مصر بعد ذلك لصلاح الدين الذى اتخذ منها قاعدة صالحة أعد نفسه فيها ، وقوى جيوشه بفضل ثروة البلاد ومواردها ، ثم انطاق بهذه الجيوش فى اتجاهات كثيرة ، فخر البلاد المقدسة أو جانباً كبيراً منها ، وتوسع نحو اليمن وبلاد النوبة وبرقة وطرابلس ، وكون إمبراطورية أو شبه إمبراطورية ، وقفت بقوتها وثروتها فى وجه الصليبيين فكسرت شوكتهم فى وقت بلغت فيه حماسهم أقصاها . ولقد عاد هؤلاء الصليبيون فتنهوا آخر الأمر إلى أهمية مصر وحاولوا غزوها بالبحر عن طريق دمياط والمنصورة ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك مرتين فى عامى ١٢٢١ ، ١٢٤٨ م . ذلك أن تنبههم هذا لم يجئ إلا بعد فوات الأوان . ولو أن الصليبيين اتجهوا أول الأمر نحو مصر فوطدوا أقدامهم فيها ثم استندوا إليها كقاعدة للتوسع نحو الشرق القريب ، كما فعل صلاح الدين وكثيرون من قبله ومن بعده ، لتغير وجه التاريخ لعدة قرون .

وفى أعقاب الحرب الصليبية ظهرت حرب عالمية أخرى . ولكن كان مصدرها

ومهبها في هذه الحالة من الشرق البعيد ، حيث ظهرت قوة الرعاة المغول في سهول منغوليا الشرقية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ثم اندفعت جموعهم نحو الغرب ، فبلغت أواسط أوروبا في ربع قرن أو أقل ، وكانت بذلك إحدى حروب التاريخ الخاطفة ، وربطت ما بين الصين ووسط آسيا وهضبة إيران وسهول روسيا وأوروبا الشرقية . ومع ذلك فيظهر أن هؤلاء الرعاة قد استهواهم استواء السطح وكثرة المرعى في سهول روسيا الجنوبية ، فاندفعوا بنجيلهم وركبهم في ذلك الاتجاه ؛ ولم يصب الشرق الأدنى في غرب آسيا غير جانب من ضغطهم انتهى بتخريب بغداد على يد هولوكو في عام ١٢٥٨ م . ولكن قوة المغول ما لبثت أن تلاشت في هذا الاتجاه ، واستطاع سلاطين مصر هزيمتهم في عين جالوت عام ١٢٦٠ م . ثم في حمص بعد ذلك . وأتقذت مصر بهذين النصرين الشرق العربي من التخريب الشامل على يد المغول . ولو أن هؤلاء الرعاة الجبارة استطاعوا أن يكتسحوا سوريا وفلسطين وأن يفتحوا مصر لقاست مدينة العرب والإسلام على أيديهم في هذه الأقطار مثل ما قاوت بغداد ، ولكن ممالك مصر استطاعوا من قاعدتهم أن يردوا الشر وأن يدفعوا الخطر في آخر لحظة ؛ وكانت انتصاراتهم نقطة تحول في التاريخ انتهت عندها حروب المغول الخاطفة ، واستعادت بعدها مصر مكائنها ، فتحكم المماليك من جديد في طريق التجارة البحرية ، وأتقذت مصر بلاد الشرق القريب وحضارته من خطر داهم من الشرق المغولي ، كما أتقذته في القرن السابق من خطر متسلل من الغرب المسيحي .

فإذا ما نحن تركنا القرون الوسطى ووصلنا إلى العهد الحديث ، وجدنا حلقة أخرى من الكفاح العالمي أثارها نابليون في حملته الشهيرة على مصر في آخر القرن التاسع عشر . وقد كان نابليون أحد هؤلاء العسكريين الذين يدركون قيمة المواقع الجغرافية ويحسون بطبيعتهم في أى اتجاه ينبغي أن تسدد الضربات ؛ فنفذ ببصيرته الثاقبة إلى أن مصر التي كانت طريق التجارة بين الهند وأوروبا خلال العصور القديمة والوسيطة ، ينبغي أن تكون طريق الوصول العسكري إلى الهند . وقد يقال في ذلك إن نابليون سبق البريطانيين إلى كشف أهمية موقع مصر من هذه الناحية . وقد يقال أيضاً إن البريطانيين كانوا يدركون من جانبهم احتمال ما قد يكون لمصر من أهمية في الاتصال بالهند للتجارة وغيرها ،

ولكنهم شاءوا عن قصد أن يبقى هذا الطريق مجهولاً مهملًا ، وأن تحافظ بريطانيا على طريق البحر الطويل حول إفريقيا حيث لا ينافسها منافس . وسواء أضح القول الأول أم الثاني ، فإن الحق الذي لا مرية فيه أن حملة نابليون كشفت عن قيمة موقع مصر الجغرافي مرة أخرى ، ونهت العالم إلى ما للشرق الأدنى كله من قيمة لا ية قوة تريد أن تسيطر على مواصلات العالم . ومع ذلك فقد أخفق نابليون في الغرض المباشر من حملته . وربما كان أحد أسباب ذلك أنه بلغ مصر ثم انقطعت به الطريق بعد تحطيم أسطوله على يد نلسون . ولكن قد يكون هناك سبب آخر هو أن نابليون تسرع في التقدم من مصر نحو الشرق القريب قبل أن يستتب له الأمر في مصر نفسها إلى درجة تسمح له باستخدامها كقاعدة لذلك التقدم . ومهما يكن من أمر فإن القدر لم يشأ أن يستغل نابليون موقع مصر ؛ وإنما شاء أن يخلفه في هذا الموقع عسكري وحاكم آخر : محمد علي الكبير . ولعل التاريخ قد أعاد سيرته مرة أخرى ؛ فكما أبرز الإسكندر بحروبه قيمة موقع مصر ثم ورثه في الحكم بطليموس ، كذلك كشف نابليون بحربه الموجه إلى قلب الشرق والعالم الإسلامي عن موقع مصر وقيمتها ثم خلفه فيها محمد علي ؛ مع فارق ظاهر هو أن الحاكم الجديد رغم نزعته القوية إلى التجديد والاقتراب من الغرب كان يمثل جانباً هامياً من روح الشرق الذي أيقظته حملة نابليون وصدمته العنيفة من سُبباته الطويل العميق .

وقد أدرك محمد علي منذ البداية ما في هذه البلاد وأهلها من حيوية كامنة ، وما يمكن أن يكون لها من شأن لو أن مصادر القوة فيها وُجِّهت التوجيه الصحيح ؛ وكان في ذلك نافذ البصيرة صادق الحكم . فنفض في روح مصر ، ووجه نهضتها توجهاً عملياً ، واستطاع في ربع قرن أو نحو ذلك أن يدفع بنفسه وبهذه البلاد إلى المقدمة في القوة والجاه . ولكنه عند ما أراد أن يستغل موقع مصر الجغرافي لم يشأ أن يتحكم في طرق التجارة ، ولأن يأخذ بمشروعات وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، ولا أن يحاول الإفادة من مرور التجارة العالمية كما أفاد غيره من حكام مصر السابقين أيام البطالسة ثم أيام المهاليك . ذلك أنه أدرك ، وكان صادقاً في إدراكه ، أن مصر مهما قويت واشتد ساعدها فلن يكون لها من القوة ما ينظر قوة أهل الغرب وذوى المصالح في تجارة الشرق . وما دام الأمر كذلك فأولى لمصر أن تتواضع وأن تقتصد فيما قد ترمى إليه من

وراء التحكم في المواصلات العالمية تحكما قد ينطوى على المغامرة بكيانها نفسه . ومع ذلك فإن مجد علي لم يتوان من جهة أخرى في استغلال موقع مصر العسكري ومواردها المادية عن طريق آخر . فلم يكد الأمر يستقر له في هذه القاعدة حتى اندفع منها بجيوشه نحو الجنوب في السودان ، ونحو الشرق في بلاد العرب ، ونحو الشمال في بلاد اليونان ، ثم أخيراً نحو الشمال الشرقى في آسيا الصغرى . ولولا ما كان من تألب دول الغرب على هذه الأمة الناهضة وهذا الحاكم العظيم ، لكان لمصر وعاهلها إذ ذاك وبعد ذلك شأن آخر . . . بل إننا لا نجاوز حد المعقول إذا نحن نسبنا إلى هذا التدخل تحول الأمور عن مجراها الطبيعي ، الذي كان يقضى بأن تجنى مصر ثمار نهضتها لخيرها وخير الشرق القريب كله . فقد قطع التدخل الأجنبي الطريق على مصر وحال بينها وبين أن تصبح قاعدة لتكوين كتلة متماسكة في الشرق الأدنى تخلف إمبراطورية العثمانيين المتداعية في مواجهة الغرب الطامع . بل إن تدخل أوروبا كان أبعد أثراً من ذلك ؛ فهو قد وقف نموّ النهضة المصرية وشل حركة تطورها الطبيعي من جهة ، كما أطل دور النزاع في الإمبراطورية العثمانية الفانية من جهة أخرى . وترتب على ذلك أن دخلت ولايات الشرق الأدنى بما فيها مصر في دور من الاضطراب أفسد أمورها ، وعطل نهضتها ، وفتح الطريق أمام الغرب الأوربي في أن يتلاعب بشؤونها ويتكالب من أجل السيطرة عليها . وكانت مصر أول فريسة وقعت للعدو من ولايات إمبراطورية الرجل العجوز ؛ فانقلبت الأوضاع ، وباعد التدخل ثم الاحتلال بين مصر وبين أن تتابع نهضتها الداخلية أو أن تتزعم الشرق في نهضته العامة ، فشغل أبناءؤها بمجاهداتهم من أجل حريتهم المفقودة ، وهم لا يزالون ينفقون في ذلك من الجهد ما كان أولى بهم أن ينفقوه في دعم نهضة بلادهم أو في الأخذ بيد إخوانهم في بلاد الشرق التي عرفت في مصر رائدتها الأولى في كثير من نهضاتها التاريخية .

وهكذا بشرت نهضة مجد علي في أول الأمر بأن يكون موقع مصر مصدر بركة وخير لها وللشرق القريب كله . ولكن هذا الموقع ذاته ما لبث أن انقلب بسبب تدخل الدول الأوربية وموت الإمبراطورية العثمانية موتاً بطيئاً إلى مصدر خطر لا تزال نعاني شره حتى الآن . وليس ما حدث خلال الأربعين سنة الأخيرة وفي هذه الحرب العالمية الكبرى التي يقال إنها انتهت منذ أقل

من عام ، إلا نتيجة طبيعية لما كان من نشابك المصالح وتطاحن الدول من أجل هذا الشرق القريب والسيطرة على موقعه الجغرافي . ولكن قصة هذا التشابك والتطاحن أكثر تعقيداً من أن نستطيع تناولها في هذا المقال .

على أننا نستطيع أن نخرج من هذه الدراسة التاريخية بحقيقة كبرى فيما يختص بمصر وموقعها الجغرافي . ذلك أنه لم تحدث حرب « عالمية » بالمعنى الكامل الصحيح لهذه الكلمة ، منذ فتح الإسكندر باب هذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفاً فيها . ولم تستطع هذه البلاد بموقعها الجغرافي الفذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تحجب نفسها مثل هذه الحروب التي دُفعت إليها دفعاً أو انسأقت إليها انسياقاً ؛ فهي قد مستها حروب الإسكندر وحروب الرومان وفتوح العرب وحروب الصليبيين وغزوات المغول وفتح الأتراك وغزو نابليون وما تلاها من تشاحن في الشرق لا تزال في أعقابه حتى اليوم . كذلك كانت مصر طرفاً في تأليف إمبراطوريات عالمية متتالية أيام الرومان والعرب والأتراك والبريطانيين . وإذا كان تاريخ المصريين أيام الفراعنة وقبل الإسكندر قد ارتبط بعامل جغرافي أساسى هو البيئة المحلية ومبلغ استغلالهم لها استغلالاً يعتبر مقياساً لازدهار المجتمع وقوة الدولة في تلك الأيام ، فإن تاريخهم بعد ذلك قد اتصل بعامل جغرافي آخر لا يملكون التنصل منه ولا تحجب آثاره ، ذلك هو موقع بلادهم الجغرافي الذى أطمع فيهم الطامعين وأفلت بسببه زمام التاريخ من أيديهم إلا في فترات قليلة عرف فيها أبناء البلاد وسادتها كيف يستغلون هذا الموقع لصالحهم ، وكيف يحققون لبلادهم من القوة والمنعة ما يناظرون به القوة الخارجية ، وكيف يتخذون من بلادهم قاعدة للتوسع في الشرق أو التحكم في التجارة العالمية ، كما حدث أيام البطالسة أو أيام صلاح الدين والمماليك ، وكما كان يجب أن يحدث لو أن نهضة مجد على سارت سيرها الطبيعي ولعلنا نذكر بعض هذه الفترات وما فيها من عبر ودروس عندما نتطلع إلى المستقبل في أعقاب هذه الحرب المنتهية والذكرى تنفع المؤمنين .

سليمان حزين